

## تمهيد

في علم التربية، يبدو من السهل جداً أن نضل طريقنا، وأن ننسى أين كنا ومن نحن. يقول الشاعر الأنجلو - أمريكي ويستان. هيو. أودين Wylan Hugh Auden : يتميز بنو البشر عن الحيوانات بثلاثة أشياء على الأقل: نعمل، ونضحك ونصلي. ولذلك، فإن أفضل المعلمين هم أكثرهم إنسانية، لكن العصر الحديث يمكن أن يتأمر علينا ليحرمننا أفضل ميزاتنا. نحن نعيش في عصر يمكن فيه للناس الوصول إلى المعلومات بطرائق متنوعة وأسرع من أي وقت مضى. إضافة إلى أننا نواجه خطر الغرق في كم هائل من المعلومات الخالية من المعنى والهدف. وعليه، فنحن، في الأغلب، نضحى بالسبب والهدف في سعينا للحصول على تعليم يتناسب مع تحديات هذا الزمن.

ولتلمس طريقنا في هذا العالم المتغير، جاء كتاب (التعليم التحويلي في عصر المعلوماتية: ربط هدف التعليم وطريقة التدريس بالطلاب) وهو مشروع تكاملي يسعى إلى إعادة تأكيد هوية التعليم عبر استكشاف أصول التدريس من منظور لا يتأثر بالزمن، ويضع الطلاب في بؤرة الاهتمام، ويسأل: لماذا نعلم هؤلاء الطلاب؟ إنه يتبنى فكرة أننا بصفتنا معلمين نكون قد فشلنا في أن نعلم إلا إذا تعلم طلابنا. وهو يصف مهمتنا في التعليم بأنها تحويلية أكثر مما هي إعطاء معلومات.

يمثل نموذج أسلوب التدريس التحويلي الأسس التي يقوم عليها هذا الكتاب، والخيط الذي يربط موضوعاته كلها. وهذا النموذج يسعى إلى تقديم منظور إبداعي عبر امتداداته كافة، بدءاً من تجميع صنوف المعرفة الأصيلة والمعاصرة في حقول طرائق التدريس والفلسفة التربوية، وصولاً إلى إضافة معلومات نفسية وعصبية تنطبق على التدريس والتعليم. وهذا يعدّ امتحاناً للمعلم الممارس؛ لأنه يعني تطبيق نظرية التعلّم على طرائق التدريس. وهو ينقل المعلم من المفاهيم التربوية المحضة إلى فهم يكون فيه التدريس عملية تحويل وتحويل. أيضاً، هذا الكتاب موجه للمعلمين الذين يحبون التأمل في تحدي الربط بين الهدفين العظيمين للتدريس: الأكاديمي والاجتماعي.

على مدى نحو ثلاثين عاماً، درّسنا طلاباً في المدارس الحكومية، والجامعات الحكومية، والجامعات الدينية. هؤلاء الطلاب جميعهم أهمونا الكتابة، ونحن مدينون لهم بذلك؛ طلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، طلاب المرحلة الجامعية الأولى، والخريجون الذين كوّن فضولهم الرائع وإخلاصهم محور هذا الكتاب. وإشارة إلى خطابنا التربوي معهم، فقد أوردنا بعض قصصهم في هذا الكتاب، لكننا تعمدنا تغيير أسماء بعض هؤلاء الطلاب ومعظم المعلمين إلى أسماء وهمية. إننا نشكر طلابنا وزملائنا في جامعة يونيون الذين شجعونا وساعدونا، عبر خبراتهم، في اختبار هذه الدراسة ميدانياً.



## مقدمة

إذا قلنا: إننا نعيش في عالم متغير سريع الخطى، فهذا تقليل كبير من شأن ما نعيشه فعلاً؛ لأن معدل انتشار المعرفة، والسهولة التي يمكن الوصول فيها إلى المعلومات أمر على قدر كبير جداً من الروعة. عام 1969، كتب نييل بوستمان وتشارلز وينجارتنر Neil Postman & Charles Weingartner عن التغيير في كتابهما التعليم بوصفه نشاطاً تدميراً Teaching as a Subversive Activity باستخدام ساعة جرى ضبطها لقياس معدلات الاختراعات المتعلقة بالاتصالات. لقد استخدموا الساعة مقياساً مجازياً يعادل ثلاثة آلاف سنة (الدقيقة = خمسين عاماً) ليظهروا كيف أنه في القرنين الماضيين (آخر أربع دقائق) وقعت أحداث جسام بسرعة فائقة؛ فقبل إحدى عشرة دقيقة اخترعت المطبعة، وقبل أربع دقائق اخترعت القاطرة والتلغراف، في حين اخترع في الدقائق الثلاث الأخيرة الهاتف، والتصوير الفوتوغرافي، والمذياع، والسيارة، والصور المتحركة، والطائرات. أمّا التلفاز، فظهر قبل أقل من دقيقتين. واخترع الليزر، والاتصال بالأقمار الصناعية والحواسيب في الدقيقة الأخيرة. وفي غضون الثلاثين ثانية الأخيرة، ظهرت الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) والحاسوب الشخصي. أما الثواني الخمس الأخيرة، فقد ظهر فيها الهاتف المحمول، والتقنية الرقمية، والتقنية الحيوية، والهواتف الذكية وغيرها. قبل إحدى عشرة دقيقة على هذه الساعة، يتعين علينا العودة إلى اختراع الكتابة نفسها، قريباً من بداية الزمن المكتوب.

وأكد المؤلفان أنّ تلك الساعة التي استخدمها يمكن أن تظهر النمط ذاته إذا ما استخدمت في مجالات اختراعات أخرى، مثل الطب أو العلوم: قبل دقيقتين، المضاد الحيوي. قبل دقيقة، جراحة القلب المفتوح. قبل ثانية واحدة، أدوية خفض الكوليسترول. لقد كانت الفكرة هي أنّ التغيير ذاته قد تغير، وأنّ هناك درجة تغيير جديدة.

وعلى الرغم من سهولة المبالغة بالتغيير، والتشديد على عصرنا الحالي كما لو أنّ هذا العالم لم يعرف أيّ تغيير من قبل، فإنّ وجهة نظرهما تبدو صحيحة. وكما قالوا: (في اللحظة التي نحدّد فيها نظاماً فاعلاً (من القيم والمعتقدات وأنماط السلوك)، فإنه يصبح عديم القيمة؛ لأنّ كثيراً قد تغير فيما نحن نقوم بذلك) (ص.11). التغيير يحدث شيئاً أم أبينا، وأنماط السلوك يمكن أن تتغير أيضاً، ولكن ببطء.

ما زال كثير من المعلمين يعتقدون أنّ دورهم هو إعطاء المعلومات، وهو أمر ربما كان منطقيّاً قبل دقيقة أو دقيقتين على ساعة بوستمان ووينجرتتر. في فيلم (العثور على نيفرلاند)، Finding Neverland وهو فيلم مؤثر، عُرض منذ بضع سنوات، توجه السيدة سنو سؤالاً إلى بيتر بان، الذي يقوم بدور مؤلف قصة جيمس باري: أعتقد أنّ الوقت يطاردنا دون أن ندري، أليس ذلك صحيحاً؟ ما نريد قوله هو: إنّ الوقت يطارد المعلومات كما يطارد الناس.

إنّ كثيراً من المعلمين لديهم ميل للعمل الشاق، والقراءة، والكتابة ساعات طويلة جداً؛ لإتقان ما يعتقدون أنّ هذا ما يفترضُ تدريسه. ولكنهم عندما ينظرون فجأة حولهم، يجدون أنّ الموضوع قد تغير بين ليلة وضحاها. ليس هذا فحسب، بل إنّ الطلاب أنفسهم قد تغيروا أيضاً. كلّ هذا من أعراض ما أطلق عليه ألفين توفلر Alvin Toffler (صدمة المستقبل) حين نواجهُ بفكرة أنّ العالم الذي تعلمنا الإيمان به لم يعد موجوداً. وفي ضوء هذا كلّه، ربما يصبح ما ندرسه اليوم شيئاً من الماضي في المستقبل القريب جداً.

يجادل منظر العولمة الأمريكي توماس فريدمان (Thomas Friedman) (2007) بصورة مقنعة في أننا نعيش في حقبة فريدة من نوعها، وأنَّ عالمنا مسطَّح. وفي الواقع، فإنَّ تطور المواصلات والاتصالات في القرون القليلة الأخيرة قد خفض حجم العالم من متوسط إلى صغير. فمنذ عام 2000، دخلت عوامل تقنية (تكنولوجية) كثيرة دفعة واحدة، منحت الأفراد قوة جديدة للتعاون والمنافسة عالمياً عبر منبر (عالم مسطَّح) (ص. 10). وهذا العالم المسطَّح، هو العالم الذي أصبح فيه الوصول إلى كلِّ شخصٍ آخر أمراً سهلاً، وأصبح ذلك ممكناً، على نحو ما، بسبب إمكان التقارب عن طريق أجهزة الحاسوب الشخصية، وأكبال الألياف الضوئية، والتقدم في برامج الحاسوب التفاعلية.

يقول فريدمان: إنَّ التغيير مختلف جداً الآن؛ لأنَّ الأفراد أصبحوا متمكنين من الاتصال عالمياً عن طريق وصل الجهاز بالكهرباء. والحقيقة الأهم هي أنه لضمان استمرار عملهم، يتعيَّن على هؤلاء الأفراد تأكيد (القيمة المضافة) أو المخاطرة بفقدان عملهم لمتعاقدين خارجيين. وهنا نود أن نسأل: ما قيمتك المضافة بصفتك معلماً؟ ما الفرق الذي يمكن أن تحدثه؟ كيف يمكن للمعلمين مواجهة عالم جديد مثل هذا؟ إنَّ موضوع هذا الكتاب يتناول الكيفية التي يدرك فيها المرءون مدى أهمية القيمة المضافة إلى التلاميذ. نحن نعتقد أنَّ البداية هي في أن نفهم أولاً لماذا نعلِّم.

## التدريس المعلوماتي

تولي مراكز عصر المعلوماتية اهتماماً بتقنية (تكنولوجيا) الحاسوب، وتحويل المعلومات، وتخزينها، واسترجاعها، ونقلها. تعرِّف ويكيبيديا (2008)، التي هي نفسها إبداع مثير للجدل من عصر التقنية الرقمية، عصر المعلومات بأنه تحوُّل الاقتصاد العالمي من الاهتمام بإنتاج البضائع (العصر الصناعي)

إلى استغلال المعلومات. وفي الواقع، فإنّ عملية البحث عن هذا التعريف الذي أوردته ويكيبيديا هي في حدّ ذاتها شهادة على العصر الرقمي. لقد كنا جزءاً مما يزيد على 2,7 بليون عملية بحث على محرك البحث (جوجل) خلال شهر واحد من عام 2008 (فيتش 2008). وفيما نحن نعدّ هذا الكتاب، جاء عرض للتدريب على برامج أحدث على الإنترنت، مثل: زوتيرو، ونينج، وبودوماتيك، وتكنوراتي، وبي بي ويكي... Zotero, Ning, Podomatic, Technorati, PB Wiki وغيرها. يمكن لنا مقارنة هذا التدفق المحيّر في البداية بتدفق وسائل النقل الجماعي التي تنطلق منها أصوات الإعلانات الداخلية عند الوصول إلى كلّ محطة جديدة من محطات التوقف على الشوارع. إنّ كلّ يوم يمرّ علينا هو يوم جديد ومتغيّر. ومع ذلك، هناك مؤشرات قوية على تكيّف المعلمين مع هذا العصر الجديد، ولاسيّما فيما يتعلق بكيف نُعلّم ولماذا.

إنّ الجهود المبذولة في المدارس لتدريس المناهج الدراسية المستندة إلى المعايير بطريقة صارمة، ولتقويم التدريس عن طريق امتحانات مقنّنة، ومعاقبة المعلمين بسبب الفشل نتيجة درجات الامتحان، كلّها أعراض للكيفية التي يغيّر فيها عصر المعلوماتية النظم التعليمية. ومن آليات التكيّف المهمة التي يمكن استخدامها لفهم هذه التطورات بأنها ذات صلة بالتربية هي طرح أسئلة رئيسية. ومن خلال الظروف والصعاب كلّها، علينا التشديد على أسئلة أساسية تذهب إلى أبعد من: ما الذي ندرّسه؟ و: كيف نقيسه؟ وصولاً إلى: ما الذي يعنيه ذلك كلّهُ؟ و: ما الذي يجب على المدارس فعله؟ و: ما دور المعلم؟ و: مَنْ هم الذين نُعلّمهم؟ و: كيف يتعلّم الطلاب؟ و: كيف يجب أن ندرّس؟ والسؤال الأخير هو: لماذا نُعلّم؟ وما لم نكن دقيقين وواعين، فإنّ رسالة التعليم سوف تضيع هباءً منثوراً.

يمكن لنا جميعاً أن نتفق على بعض غايات التعليم، ومن ضمنها تعزيز أخلاقيات التعلُّم مدى الحياة، والتعليم لفهم أعمق للأشياء، والعمل على تطوُّر طلابٍ لا يهتمون بالإنجاز فحسب، بل بالآخرين كذلك. تقول جاكلين بروكس (Jacqueline Grennon Brooks, 2004): «إنَّ القضية المطروحة ليست افتقارنا إلى المعرفة أو القدرة الجماعية، بل افتقارنا إلى الرؤية الجماعية والإرادة. نحن لا نعمل بصورة جيدة لإنشاء غرفة الصف التي نريدها» (ص. 9). إننا نتفق مع هذا التقييم، ويمكن إضافة أن الأهداف التربوية يجب أن تكون لها الأولوية مجدداً.

قالت المعلمة جاكبي: إنها تتوق إلى رؤية تعليم يهتم بالطلاب، بأنهم أشخاص أولاً، ومن ثم يهتم بالنتائج. إنَّ إحدى الخصائص المقلقة في عصر المعلومات هي المطالبة بالتمائل والتطابق، إذ إنَّ معايير التدريس في كثير من الولايات الأمريكية تدعو إلى تطبيق تماثل مبرمج. مثلاً، على معلمي الصف الخامس كافة في بعض المناطق تدريس المادة مستخدمين دروساً من الموقع الإلكتروني نفسه، وفي اليوم ذاته. وتعاني المقاطعات الحضرية، بالتحديد، الهوس الشديد فيما يتعلق بالمعايير؛ لأنَّ كثيراً من مدارسها ترد في قائمة المدارس الفاشلة. وقد جعلت هذه المقاييس بعض المعلمين يشعرون بأنهم ليسوا أهلاً للثقة، فهم يشعرون بأنهم مجبرون على التدريس بموجب سياسات عقديَّة. ومع الأسف، فإنَّ التماثل والتطابق يسيران جنباً إلى جنب.

وإذا ما أضفنا إلى هذا التصور المسبق ذلك التحالف بين قيادات رجال الأعمال والسياسيين الداعي إلى تدريس الأساسيات، فسوف يكون التعليم المعلوماتي طريقة التدريس السائدة في التعليم. وهو أسلوب تدريس لا يهتم كثيراً بتحقيق فهم أعمق للقيم الاجتماعية. إنَّ التفكير في غرفة الصف كان يسير في الواقع بالطريقة الآتية: لدينا موضوع لشرحه، لكننا لا نملك

الوقت الكافي لأدائه بصورة جيدة، والامتحانات قريبة، وهي شاقّة ومرعبة؛ لأنّ التدريس الناجح غالباً ما يولي جُلّ اهتمامه في الوقت الحاضر إلى رفع الدرجات. وعندما يقترح مربّون آخرون أولويات مختلفة، مثل تعليم الطفل المتكامل، فإنهم يتّهمون، كما أشارت مارج شيرر (Marge Scherer 2007)، بأنهم عاطفيون وغير موضوعيين (ص. 7).

بصفتنا معلمين، ربما كنا نريد بعض التريث والنقاش، وطرح مزيد من الأسئلة، وإتاحة الفرصة أمام الطلاب لطرح الأسئلة أيضاً، وقضاء مزيد من الوقت خارج الصف ليدروا حواراً يعبرون فيه عن بعض ما يهمهم في حياتهم. على أيّ حال، الزمن هو خصمنا وعلينا التّحرّك. صحيح أنّ الاهتمام بحياة مُرضية فكرياً ومسؤولية اجتماعياً أمر مهم، لكنها ليست ما يقبض المعلمون أجورهم لفعله.

لقد ثبت أنّ الأولويات الحالية في التدريس لها عواقبها، فقد أظهرت دراسة مولتها مؤسسات جيتس أند جويس Gates and Joyce نهاية السنة الدراسية 2009، أنّ اثنين من بين كلّ خمسة معلمين (40%) يشعرون بالإحباط وخيبة الأمل فيما يتعلق بعملهم (Yarrow, 2009). ولهذا، فإنّ توجهات المعلمين ودوافعهم حيوية وحاسمة عندما يتعلق الأمر باختيارهم التعليم مهنة لهم. وإذا سألنا المعلمين عن سبب اختيارهم تلك المهنة، فإنّ معظمهم سيقولون: إنهم يريدون التأثير في حياة طلابهم بصورة عميقة. ما لا شك فيه أنّ المعلمين يعيشون لحظات من البهجة عند سماعهم طالباً في الصف الأول الابتدائي يقرأ بطلاقة، أو رؤية طالب خجول يظهر قدرات قيادية. إنّ البهجة والإحساس بالإنجاز لدى المعلم يأتيان من مراقبة الطلاب وهم يتعلمون. وعندما يتعلم الطلاب ويتغيرون، فإنّ المعلمين يتغيرون أيضاً. وعلى أيّ حال، يرى المعلمون أنّ الاهتمام الشديد الآن ينصبّ على المعرفة الأكاديمية، أو على أساسيات

هذه المعرفة. إنَّ المهمة والرسالة في عمل المعلمين هي تحفيز تحصيل قابل للقياس لدى طلابنا، وهذه هي أولويتهم.

ولكن، لماذا لا تعدُّ هذه الأولوية إنجازاً؟ لأنَّ هناك جيلاً من الطلاب، ولاسيَّما من ذوي الأداء المتدني، لم يفسلوا فحسب، بل ضلُّوا الطريق أيضاً. وعليه، فإنَّ الحلَّ يكمن في اهتمام أحادي الرؤية بالمهارات الأساسية والمساءلة. وهذه الأولوية أمرٌ واقع في المدارس الحكومية. لقد أصبح قانون (عدم استثناء أيِّ طفل) No Child Left Behind هو المتهم، مع أنَّ بعضهم يمكنه القول: إنَّ هذا القانون هو انعكاس للتفكير المضلُّ الذي كان جلياً في التعليم على مدى سنوات عدَّة. وبناءً على ذلك، فإنَّ الاهتمام بالعقل وحده يحرم الطفل هويته الكاملة؛ فالحياة التي تتَّصف بالإنجاز تتطلب أكثر من النشاط العقلي.

### المساعدة المطلوبة: رعاية المعلمين وتطويرهم

من أجل مجازاة التطورات من حول المعلمين، هناك حاجة إلى رعايتهم وتدريبهم وتطويرهم. فطلابنا في مطلع القرن الحادي والعشرين نشؤوا في بيئة يسهل فيها الوصول إلى المعلومات عبر تقنية مملَّة جداً. وفي كثير من الأحيان، لا يحصلون إلاَّ على القشرة الخارجية للتعلم. وقد جرى إقناعهم بأن المعلومات المفصلة التي يحصلون عليها هي المعرفة المرجوة، وهم يثقون كثيراً في فهمهم المزعوم. ويبدو طلابنا كأنهم مشغولون أكثر من أيِّ وقت مضى، لكن حياتهم في واقع الأمر بالكاد تتجه نحو الأهداف الأكاديمية. وبدلاً من السعي وراء الأهداف الأكاديمية، نجد نوعاً آخر من الانغماس، فطلابنا عالقون في مملكة الأجهزة الإلكترونية، حيث التعلُّم قائم على لمسة أصبع أكثر مما هو قائم على تشغيل العقل. وقد قرَّب هذه الصورة إعلان تجاري حديث عن إدارة برامج الحاسوب يطرح السؤال الآتي: هل المسألة هي كيفية الحصول على مزيد من المعلومات أم كيفية دمج هذه المعلومات كلِّها وربطها معاً؟

إذن، فالرعاية المطلوبة على مستويات عدة لبناء نوع من الفهم العميق الذي يجعل الأفراد يتحولون. إنَّ المعلمين العظام لا يدفعون الطلاب إلى مستويات جديدة من التقصي الذي يبني تعليماً معمّقاً فحسب، بل إنهم أيضاً يجسّدون نموذجاً للسلطة الاجتماعية والروحانية المفقودة من حياة طلابنا. تقول لنا روبن كوننز (2009) Robin Collins كيف بدأت العمل على إيجاد تواصل وثيق بين طلابها من الصف الخامس في مدرسة كولومبيا الابتدائية في وودلاند بارك، كولورادو:

«لإبراز الوعي بالارتباط المتبادل، جرّبت نوعاً جديداً من النشاط لبناء المجموعات. ففي أحد اللقاءات الأسبوعية، وبعد أن قام كلُّ واحد من الطلاب بتحيّة طالب آخر، رمى الطالب أو الطالبة كرة من الخيوط الصوفية إلى طالب آخر في الحلقة، بعد ربط طرف الخيط حول يده أو أصبعه. واصلنا قذف الكرة إلى الأمام والخلف حتى بنينا شبكة من الخيوط. عندما أصبحنا متشابكين كلنا، أخذت أسجّل ملاحظات الطلاب». (ص. 82) .

تعمّقت ملاحظات الطلاب إلى حدٍّ أنهم لاحظوا أنّ شبكة الخيوط تهتز كلما تحرك أحدهم؛ لأننا كلنا متصلون معاً. بصفتنا مربين، يمكن أن نجد أنفسنا بعيدين عن هذه الرؤية التواصلية، بل إننا قد نجد أنفسنا ممزقين من قوى عزل مع أننا نعيش حقبة رائعة من التاريخ. إنّ قصر النظر هو أحد أعراض هذه العزلة. ويحدث قصر النظر التربوي عندما يبدو أننا لا نستطيع رؤية ما هو أمامنا مباشرة، أي طلابنا!. ونحن لا نرى طلابنا عندما نفشل في رؤية من هم حقاً، وعندما نفشل في تدريسهم كيف يتعلمون.

مثلاً، تحوّل معظم ميول المعلمين الطبيعية منحي التحليل أكثر من التركيب. وفي الواقع أنّ كثيرين منا اختاروا مهنة التعليم بسبب قدرتنا على تفهيم مفهوم أو فكرة أو جزء من المعرفة، بحيث تصبح مفهومة أكثر لطلابنا-

وهي مهارة تدريس مهمة جداً. ونحن نعتقد أننا إذا استطعنا إظهار بساطة المفهوم لطلابنا، فإنهم سوف يستوعبونه. لذا، نبدأ بالتفاصيل الصغيرة.

ومع ذلك، فإن الصورة الكبيرة للتعليم والتعلم تتضمن التركيب أيضاً، ويمكن أن تكون مركزة بوضوح عندما تؤخذ الجوانب كلها في الحسبان، وبصورة شاملة. ربما يبدو الأمر مغايراً للحدس، لكن الغالبية العظمى من الطلاب تستوعب المفاهيم الجديدة عندما يُقدّم الموضوع بصورة عامة قبل وصفه أو تعليمه بالتحديد (برانسفورد، براون & كوكينغ، 2000؛ سويار 2006) (Bransford, Sawyer, 2006; Brown, & Cocking, 2000). ومع ذلك، فنحن غالباً ما ندرّس بطريقة استقرائية، وهي عكس الطريقة التي يتعلم بها معظم طلابنا.

اكتشف المعلم كارلوس كيف يتعلم طلابه بصورة أفضل عندما كان يصنع لوحة إعلانية لغرفة الصف. كان قد أنجز نصف اللوحة فقط قبل وصول طلابه من الثاني المتوسط إلى غرفة الصف. كان الطلاب منمهمكين في محاولة الإجابة عن السؤال: «ما الذي يجعل الشعب شعباً؟» إلى حد أنهم أزعجوه معظم اليوم، وأعاقوه عن إكمال اللوحة الإعلانية. انتبه كارلوس فجأة إلى أنه سيكون من الأفضل لو أن طلابه ساعدوه على إنهاء المشروع. لذا، جعل من اللوحة أداة للتعلم، وفي الوقت ذاته واصل العمل على أهدافه الأصلية.

أنجز الطلاب اللوحة الإعلانية بوصفها درساً استقصائياً مع الدلالات الاجتماعية، والأنثروبولوجية، والبيولوجية، والتاريخية كلها. تأثر كارلوس كثيراً من استجابة طلابه لـ (اكتشافه) حتى إنه جعل طريقة تدريس تلك المادة جزءاً أساسياً من مهاراته التعليمية. لقد احترم كارلوس، بصورة واعية، الطريقة التي تتعلم بها طلابه، بعد أن لمس أن الرغبة في استكمال ما هو ناقص تعدّ على ما يبدو سمة من سمات معظم الطلاب، وهذه إحدى طرائق التفكير في التعلم الاستنتاجي.

## ما الأهم؟

من السهل أن يُصاب المعلمون بالارتباك فيما يتعلّق بالأشياء المهمة فعلاً داخل غرفة الصف؛ لأنّ خطط التعليم الأمريكية الكبرى للقرن الحادي والعشرين، بل في العالم كلّ، تبدو كأنها ترفض المنظور الأكثر شمولية عمّا يمكن الإشارة إليه بعبارة (احترام الطالب). ولهذا، فإنّ التعليم الذي توجهه النتائج هو الرائج، وهو يستخدم درجات الامتحانات، ليس فقط دليلاً على التعلّم، بل هي التعلّم نفسه.

وعلى الرّغم من أنّ هذا النموذج الفكري فيه شيء من الصحة - حيث يتعيّن على الخريجين أن ينافسوا في سوق العمل - لكنه جزء من صورة أكبر للاهتمام بأهداف التعليم. وفي الوقت الذي تعدّ فيه المقاييس الموضوعية جزءاً مهماً من التدريس وأحد مؤشرات النجاح، فإنّ من المهم عدم المبالغة في ذلك؛ لأنّ كلّ طفل أو مراهق هو أكثر من مجرد موظف مستقبلي. إضافة إلى أنّ أيّ واحد منا هو أكثر تعقيداً من درجة في اختبار مقنّن. وفي ضوء ذلك، فإنّ ما يهم فعلاً في التعليم ليس ما ندرّسه، بل من ندرّسه.

وقد دعا روبرت ستيرنبرج (2008) Rober Sternberg إلى قياس ما هو مهم؛ طلاب دون تاريخ انتهاء صلاحية. وأكّد أنّنا في حاجة إلى مدارس تعلّم الطالب أن يكون محللاً، ومبتكراً، وعملياً، وحكيماً. وبالتشديد، فإنّ تلك الأشياء تمثّل مجالاً أخلاقياً للتعليم. وقد بنى ستيرنبرج فكرته على أساس أنّنا يجب أن نُعلّم الطلاب ليكونوا فاعلين ومواطنين مشاركين في بناء هذا العالم. وفي المقابل، إذا كان تدرّسنا من أجل الحقائق فقط، بدلاً من البحث عما وراء هذه الحقائق، فإنّنا نكون قد علمنا الطلاب كيف يصبحون خارج الزمن (ص. 21). ومن المؤكّد أنّ المعلمين يحترمون الطلاب في النهاية عندما يؤمنون أنّهم أكثر من مجرد أوعية للمعلومات، ذلك أنّنا باستطاعتنا التعليم من أجل الشمولية والعمق.

إنَّ قيم الحياة، والمواطنة، وتمتّع الفرد بالأخلاق هي أهداف اجتماعية يجب أن توضع إلى جانب الرءاءات الثلاثة بالإنجليزية، Reading, Writing, Arithmetic & (القراءة، والكتابة، والرياضيات) بدلاً من التدريس من أجل الامتحان، أو ما يُطلق عليها التاءات الأربع بالإنجليزية، Time, Teacher Load, Textbooks, and Tests (الوقت، ونصاب المعلّم، والمقرر، والاختبارات). إنَّ النزاهة الأكاديمية تدعونا إلى تحويل اهتمامنا في اتجاه طلابنا. وعلينا نذكر أنّ الأولويات والاتجاهات هي التي تحدث التغيير. إنَّ ما نطمح إليه، وما يستحقه طلابنا، يجب ألا يكون أقلّ من العمل على تحويلهم؛ عقلاً، وجسداً، وروحاً.

## تنظيم الكتاب

يتطلب التوجه المنفتح على مجالات أكثر ثراء من المعرفة أن نصغي إلى أنفسنا وإلى الآخرين. لكنه يتطلب أيضاً طرح أسئلة تأسيسية، وصياغة المبادئ التي تحدّد مفاهيمنا.

ينقسم هذا الكتاب إلى جزأين: الأول، الفلسفة التعليمية، حيث عولجت الأفكار والافتراضات الأساسية عن التعليم، مثل: لماذا نُعلّم؟ ما دافعنا الأساسي للتعليم؟ ما الأهداف المهمة؟ لماذا يؤكّد المعلمون في تدريسهم على بعض الأهداف ويستثنون أخرى؟ من نحن بوصفنا معلمين وطلاباً؟ ما الأدوار الأساسية التي يقوم بها المعلم في غرفة الصف؟ ما الذي يعنيه تعليم الطالب المتكامل؟ لماذا يجب أن يضع المعلمون الطلاب في محور عملياتهم التعليمية؟ أما الجزء الآخر، فيتناول علم النفس التربوي وأساليب التدريس؛ حيث تناولنا العملية في غرفة الصف، والمفاهيم السلوكية. وناقشنا بعض الأفكار والأسئلة، ومن ضمنها: ما التدريس مقارنة بالتعلّم؟ كيف يتعلم الطلاب؟ لِمَ تعدّ العملية مهمة جداً في التدريس والتعلّم؟ كيف يمكن للمعلمين تعليم الطلاب كيفية التعلّم؟ لِمَ تعدّ الأسئلة أساسية جداً في عملية التعليم والتعلّم؟ كيف نُعلّم عن طريق طرح الأسئلة؟ كيف يمكن للمعلمين جذب انتباه طلابهم؟

يطرح الجزء الأول أسئلة كثيرة تتعلق بالسبب (لماذا؟) لأن الفلسفة والنظرية تتطلب مجموعة متنوعة من البراهين، والنظريات، والمسوّغات لوجهات نظرنا. وإنّ وضع إجابات عن الأسئلة، أو قبول إجابة شخص عن سؤال ما، أمر عقديّ أيضاً؛ لأنّ الاستجابة تتطلب إيماناً راسخاً وثقة بالسلطة. ونحن نعتزّف أنّ طرح سؤال عن السبب (لماذا)، يستدعي بالضرورة أن نسأل عن المعلم والمتعلّم. لكن التوقف عند هذا الحدّ ليس كافياً عند التربويين. وعليه، فإنّ الجزء الثاني يطرح كثيراً من الأسئلة عن الكيفية أو الطريقة، وهو ضروري للبنية النفسية (السيكولوجية) وأساليب التدريس؛ لأنّ على المعلمين أن يكونوا مسؤولين عن التخطيط لما يمكن أن يحدث بعد شرح مسوّغاتهم للتعليم، وكي يدعموا ذلك المسوّغ بالأدلة، ومن ثمّ الانتقال من النظرية إلى التطبيق. وتبعاً لذلك، سوف نبدأ بـ(لماذا) ثمّ ننتقل إلى (كيف) فيما بعد.

في جزأي الكتاب، صغنا ثمانية مبادئ للتعليم التحويلي، وخصصنا فصلاً واحداً لكلّ منها:

الجزء الأول. لماذا نُعلّم: مفاهيم ذات صلة

1. كن ملهماً لطلابك
2. ليكن دورك معلماً متكاملأ
3. علّم الطالب المتكامل
4. الطلاب محور العملية التعليمية

الجزء الثاني. كيف نُعلّم: إستراتيجيات ذات صلة

5. علّم لأجل التعلّم
6. تعرّف كيفية تعلّم الطلاب
7. علّم الطلاب كيفية التعلّم

## 8. علم بطرح الأسئلة

وإضافة إلى ترتيب الكتاب في فصول، ضَمْنَا الكتاب أفكاراً نتمنى عليك (حملها معك) بعد أن تنتهي من قراءة هذا الكتاب. هذه الأفكار يرافقها سهم يشير إليها، والقصد منها تزويد القارئ بمزيد من الشرح والإمعان في النص (انظر ص 17). والهدف منها توفير مزيد من الوضوح والفهم طوال هذا الكتاب.

